

أعلام المذهب المالكي في الجزائر

ودورهم في تأسيس وبناء المرجعية الفقهية.

أ/الياسين بن حمراوي

جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة

ملخص البحث: يتناول البحث أحد أبرز المواضيع في تاريخ الفقه الإسلامي في المغرب الأوسط، ويتعلق بدور علماء الجزائر في بناء وبلورة المرجعية الفقهية، وإرساء قواعد المذهب المالكي في إفريقية، مع التعريف بأهم أعلامه عبر القرون الأولى، ثم بيان الأزمات والإحن التي تعرض لها المذهب عبر تاريخ تلك الدويلات المتعاقبة عبي حكم المغرب الأوسط، وكيف استطاع العلماء والقضاة من التمكين للمذهب المالكي، وأثر ذلك في توحيد المرجعية الفقهية والعقدية في ظل تعدد المرجعيات وكثرتها، ثم يخلص البحث إلى أهم النتائج في ذلك.

المقدمة: الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد:

لا يخفى على كل دارس لتاريخ المذاهب والمرجعيات الدينية السماوية منها والوضعية؛ أن لكل أمة مصدرها المقدس تستلهم منه وتسترشد به في حياتها العامة والخاصة، حتى يصبح ذلك المصدر مقدسا عند جميع أفرادها يحمون من يحميه ويحاربون من يعاديه، يتحاكمون إليه، حتى يجمعهم أمة واحدة اجتماعيا ودينيا وسياسيا.

وإن أمة الإسلام اتخذت من القرآن والسنة النبوية - عبر قرون من الزمن - مصدرا ومرجعا لها، نشأ على إثر ذلك عدة مذاهب فقهية وعقدية تختلف في مضمونها واستنباطها في الفروع، وتتحد في الأصول عموما، إلا أن ظهرت شذمة من الناس في بعض أقطار الدولة الإسلامية تدعو إلى نحل اخترعتها، ومذاهب انتحلتها زعمت أنها من القرآن والسنة، تحاكت إلى العقل ونبتت النقل وحصرته في بعض القضايا الدينية فقط، فاختلفت الأمة وتفرقت أحزابا وشيعا، استولى على بعضها الهوى المطاع، وحب السلطة، مما استلزم وأوجب على الناس أن يتخذوا مصدرا ومرجعا يعودون إليه ويثقون في أهله ممن تضيع في علوم القرآن والسنة الصحيحة مع الفهم السليم والخوف من الحكيم الخبير، وبظهور هذه المذاهب والعقائد؛ رضي الناس بمذاهب سنية اشتهر أعلامها فقها وعلماء وعملا ونصحا للأمة، فأصبحت عندهم مرجعية ثابتة في الأصول مرنة في الفروع، حفاظا على وحدة الأمة ونبذا للفرقة التي أحدثتها العقائد المخالفة لهدي القرآن والسنة، فاتخذ كل مصر مذهبها فقهيا جعلوه مرجعا لهم في كل حياتهم.

لقد اهتم علماء وعامة المغرب الإسلامي بالقرآن والسنة منذ الفتح الأول حتى ظهرت المذاهب الفقهية المشهورة، فاختاروا لأنفسهم مذهب أهل الحجاز المتمثل في مذهب الإمام مالك رحمه الله؛ فرأوا أنه يمثل الكتاب والسنة نظريا وعمليا؛ فالتزموه ودافعوا عنه ضد كل التيارات والمرجعيات المخالفة له أصولا وفروعا، ولا يستثنى من ذلك دور علماء المغرب الأوسط - الجزائر - في كل تلك المراحل التي مرّ بها المذهب المالكي؛ الذين أسهموا في التمكين له والدفاع عنه، من خلال مؤلفاتهم وشروحاتهم والقضاء به، والرد على مخالفيه، وللإبراز هذا الدور دفعني الأمر للكتابة حول هذا الموضوع، لبيان إسهاماتهم وخدمتهم للمذهب من جانب، وإظهار فضلهم في بناء وتأسيس مرجعية فقهية موحدة للمغرب الأوسط، والوقوف في وجه تلك المرجعيات والنحل كالحوارج والشيعة من جانب آخر، وكيف مكّنوا للمذهب المالكي رغم الحن والهزات التي مرّ بها خاصة مع دفاع الولاة والحكام على المذاهب الأخرى كالمذهب الحنفي والظاهرية.

وفي غمرة كثرة الاختلاف حول هذه المرجعيات وتنوعها وغياب التأسّي بالعلماء الربانيين، واتخاذهم مفتين للناس، ظهر بعض من ينتسب للعلم والفتوى فتصدر وهو عُمر، وتزب قبل التحصرم، فأشعل نار الفرقة وبث نيران التفرقة، ونسب إلى المالكية قلة الفهم مع الجمود، وإلى مالك الإمام مخالفة السنة والأثر، فأساءوا إلى أمتهم قبل أن يسيئوا إلى أنفسهم، وفي خضم هذا وذاك وجب أن تتخذ أمة الإسلام مصدرا يوحد عقيدتها ويقرب فقه أئمتها إلى عامتهم، حتى تتحد الصفوف، وتتوحد الكلمة، وتجتمع القلوب لمواجهة عدوها الحقيقي.

أما عن أعلام الجزائر وفقهائها ودورهم في بناء المرجعية الفقهية المالكية وبلورتها فلا أعلم - حسب اطلاعي المتواضع - من أفردتها بدراسة مستقلة، يميّط عنها اللثام ويرفع عنها الملام، ويكشف عن مكنونها التراثي الزاخر بمؤلفاته وردوده المنافحة عنه. فجاء هذا البحث لبيان ذلك حسب التقسيم الآتي:

المقدمة:

المبحث التمهيدي: مفهوم المرجعية الدينية، (العقدية والفقهية): حيث يتناول هذا المبحث الحديث عن معنى المرجعية العقدية والفقهية لغة واصطلاحا، وكمركب إضافي أيضا، مع بيان تاريخ ظهور هذا المصطلح في الدراسات الشرعية، ثم التنبيه على أهمية اتخاذ المرجعية.

المبحث الأول: تاريخ المرجعية العقدية والفقهية في بلاد المغرب الأوسط؛ (الجزائر): وفيه الحديث عن تاريخ دخول المذهب المالكي (عقيدة وفقها) إلى المغرب والأندلس عموما، وأهم النقلة لعلم مالك وفتاويه وعقيدته، والأسباب التي مكنت لمذهبه سياسيا واجتماعيا، وحلوله محل مذهب الحنفي والأوزاعي..

المبحث الثاني: أعلام المذهب المالكي في الجزائر ودورهم في بناء و بلورة المرجعية الفقهية: ويتناول البحث في أعلام المذهب في الجزائر الذين أسسوا قواعده من خلال مؤلفاتهم وفتاويهم وتوليهم القضاء، وردودهم على كل من خرج عن المذهب من العلماء وحتى الحكام والسلاطين ، ولا أدل من ذلك ردودهم على المذهب الظاهري لما انتشر في المغرب الإسلامي؛ فكتب أبو علي المسيلي (ت580هـ) "النبراس في الرد على منكر القياس"، ورد "أبو زكريا يحيى بن علي الزواوي" على ابن حزم، كما واجه خطيب قسنطينة أبو القاسم ابن سلطان " الطائفة الأندلسية" القائلة بمجموعة من البدع المخالفة للسنة النبوية، _ وكان المالكية يرون مخالفة المذهب هو مخالفة للسنة النبوية_ هذا من جهة، ومن جهة أخرى ردوا عليهم قولهم " أقوال مالك ظنية وهي تؤدي إلى المهالك"، " ولو كان مالك على حق ما اختلف أصحابه"، وغيرها من الأقوال، أما من باب التأليف والشرح في المذهب فهي أكبر أن تحصى وسيأتي الحديث عن بعضها.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج/ والتوصيات...

المبحث التمهيدي: مفهوم المرجعية الدينية: (الفقهية والعقدية):

أولاً: تعريف المرجعية لغة واصطلاحاً:

المرجعية: لغة: ¹ من مادة "رجع" ولها معان عدة في اللغة:

قال ابن فارس: الرَّاءُ وَالجِيمُ وَالْعَيْنُ أَصْلٌ كَبِيرٌ مُطَرِّدٌ مُنْقَاسٌ، يُدُلُّ عَلَى رَدِّ وَتَكَرُّارٍ. تَقُولُ: رَجَعْتُ رُجُوعًا، إِذَا عَادَ. وَرَجَعَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ، وَهِيَ الرَّجْعَةُ وَالرَّجْعَةُ. وَالرُّجْعَى: الرَّجُوعُ². وَيُقَالُ: رَجَعْتُ رَجْعًا وَرَجُوعًا. وَرَجَعْتُهُ إِلَى أَهْلِهِ أَي رَدَدْتُهُ إِلَيْهِمْ. وَأَرْجَعُ يَدَهُ إِلَى سَيْفِهِ لِيَسْتَلَّهُ أَوْ إِلَى كِنَانَتِهِ لِيَأْخُذَ سَهْمًا. وَالرَّجَاعُ: رُجُوعُ الطَّيْرِ بَعْدَ قِطَاعِهَا إِذَا رَجَعَتْ مِنَ الْمَوَاضِعِ الْحَارَةِ إِلَى الْمَوَاضِعِ الْبَارِدَةِ. وَقَدْ سَمِيَ الْعَرَبُ رَجْعًا وَرَجْعَةً.

وبعير رجيع سفر مثل نضو سفر.

وَيُقَالُ: إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَرْجِعُكَ وَرُجُوعُكَ وَرَجْعَاكَ. مَقْصُورٌ. وَفِي التَّنْزِيلِ: {إِن إِلَى رَبِّكَ الرَّجْعَى} ³. وَرُبَّمَا قَالُوا: رَجَعَانِكَ. وَإِلَى اللَّهِ مَرَاجِعُ الْأُمُورِ جَمْعُ مَرْجِعٍ. وَيُقَالُ: طَلَّقَ فُلَانٌ امْرَأَتَهُ طَلَّاقًا يَمْلِكُ الرَّجْعَةَ وَالرَّجْعَةَ وَالرَّجْعَى مَقْصُورٌ أَيْضًا.

1- جمهرة اللغة، ابن دريد، 461/1.

2 - معجم مقاييس اللغة، (49/2).

3 - سورة العلق: 08

خلاصة الأمر: أن رجع، تأتي بمعان ثلاث:

الأول: العود إلى الأمر السابق: أي: عاد إلى الأصل الأول الذي ابتدأ منه الأمر، فهو مصدره ومنبعه.
ومنه: إذا تكرر الرجوع. فهو الرّجْع⁴ ومنه المرجعية أيضا.

الثاني: العود مطلقا.

الثالث: المحاورة.

والمرجعية: كما جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة:⁵

1 - اسم مؤنث منسوب إلى مَرَجِع.

2 - مصدر صناعيّ من مَرَجِع: خلفيّة تاريخيّة سابقة.

• مرجعية الضمير: (نح) إحالة الضمير إلى مرجع أو مفسّر سابق أو لاحق.

• مَرَجِعِيَّة دينيّة: سلطة، جهة أو شخص تَرَجِع إليه طائفة دينيّة معيّنة فيما يخصّها أو يشكل عليها من أمرها
"أفتت المرجعية الدينية في الدولة بعدم شرعية الاحتلال".

اصطلاحا: لا يتنافى مصطلح المرجعية مع المعاني اللغوية لمادة: "رجع" بل هو من أحد معانيه الدالة على العودة إلى أصل ثابت.

وهي كما عرفها بعضهم: الإطار الكلي والأساس المنهجي، المستند إلى مصادر وأدلة معينة؛ لتكوين معرفة ما أو إدراك ما، يبني عليه قول أو مذهب أو اتجاه يتمثل في الواقع علما وعملا.⁶

وأحسب أن هذا التعريف على طوله يجمع كل التيارات والمذاهب الفكرية والعقدية السماوية منها والوضعية، ولهذا يمكن أن نقيّد المرجعية بالدين الإسلامي والوحي الرباني والسنة النبوية فنقول:

المرجعية: الأسس الربانية المستنبطة من الوحيين لسياسة الأمة في مختلف مناحي الحياة، يتحاكم الناس إليها أثناء الاختلاف والتنازع.

وإنما قيدته: " المستنبطة من الوحيين " أي: ليس لها العصمة المطلقة في الاستنباط، وإنما العصمة للكتاب والسنة، أي الرجوع إلى العلماء، كما أن ليس لأي إنسان سلطة التشريع المطلق. ثم لا بد أن تكون المرجعية المطلقة لله تعالى.

4- فقه اللغة وسر العربية، 191.

5- معجم اللغة العربية المعاصرة 867/2.

6- المرجعية معناها وأهميتها وأقسامها، سعيد بن ناصر الغامدي، مجلة جامعة أم القرى، العدد: 50، رجب 1431هـ، ص: 382.

ثانياً: تاريخ ظهور هذا المصطلح: إن المتتبع لكتب أئمة الفقه والحديث والدراسات الإسلامية القديمة لا يكاد يظفر باستعمال لهذا المصطلح عند العلماء، وإنما يستعملون بعض معانيه، كمصدر، والدليل، المرجع، ويقصدون في ذلك إما الكتاب والسنة، أو العلماء من الصحابة وغيرهم.

إلا أن ظهرت في الإسلام طائفة تنتسب إليه استعملت هذا المصطلح واشتهر عنها ذلك، وهي الشيعة، خاصة في العصر الحديث، «والمرجعية عند الإثنا عشرية تأخذ صفة تتلبس بالقداسة، وتكاد تصل إلى العصمة عند كثير منهم، وبذلك يتحول المرجع من ممثل للمرجعية فكرية أو عقديّة إلى كونه بذاته يصبح مرجعية».⁷

أما في الدراسات الاجتماعية الإنسانية عند المسلمين فأحسب أنهم أخذوه عن هؤلاء من حيث كثرة الاستعمال، وإن كان معناه الغوي والاشتقائي صحيحاً، فإن المصطلح يأخذ معناه حسب وروده في السياق وبالنظر أيضاً للمتكلم فيتمايز المعنى السني عن المعنى الشيعي.

ثالثاً: أهمية المرجعية: تظهر أهميتها من جانبين: من جانب مصدريتها، ومن جانب أثرها ودورها في المجتمع.

أ/ من جانب مصدريتها: تبرز أهمية المرجعية الدينية عند المسلمين من حيث كونها من الخالق المعبود جل جلاله؛ لما استقر في النفوس من التعظيم لشريعته وأحكامه التي تجلت في الأوامر والنواهي.

ثم أضفت هذه السمة -الريانية - على ورثة العلم النبوي جانباً من التبجيل والتقدير العظيم لهؤلاء العلماء والفقهاء من قبل عامة الناس، فأصبحوا يرون أن مخالفتهم هو مخالفة للكتاب والسنة، خاصة إذا كان من الأئمة المتبوعين؛ كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم.

ولأن المسلم يقرأ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ ۖ وَاللَّهَ عَظِيمًا﴾⁸

وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ عَظِيمًا ۖ وَاللَّهَ عَظِيمًا﴾⁹ ينبغي أن يرجع إلى المصدر المعصوم القرآن والسنة، وهذا لا يتأتى له إلا بالمصدر الثاني وهم العلماء الذين يوقعون عن الله تعالى. وبهذا تتبلور المرجعية الدينية المتمثلة في الوحي الإلهي ثم العلماء.

7 - الرجوع السابق، ص: 381.

8 - سورة النساء: 59.

9 - الأنبياء: 7.

ب/ من جانب أثرها ودورها في المجتمع: إن المرجعية لها أثر واضح في صناعة المجتمعات وبناء ذهنياتها خاصة إذا كانت تستمد شرعيتها من الدين السماوي غير محرف أعني بذلك الإسلام، فقد لا يتأتى لكثير من المرجعيات الوضعية أو السماوية المحرفة الثبات أمام الانتقادات والخروج عن قوانينها؛ لذلك فإن المرجعية الفقهية الإسلامية تحظى بمكانة بارزة مما يمكنها من التفاعل والتأثير في نفوس الناس، فالمرجعية الموحدة والثابتة : 01/ تحمي المجتمع من التفرق والاختلاف.

02/ تربي في نفوس أتباعها حسن الانقياد لشرع ربها تعالى.

03/ تعزز مكانة العلماء وتبرز دورهم في الأمة.

04/ تحصن أفراد المجتمع من الانحلال والتفسخ واتباع كل ناعق.

المبحث الأول: تاريخ المرجعية العقدية والفقهية في بلاد المغرب الأوسط؛ (الجزائر):

أولاً: المغرب الإسلامي قبل دخول المذهب المالكي:

كان مصدر أهل المغرب في العقائد والفقه من العلماء والدعاة القادمين مع وفود الفتح الأول للمغرب، إذ كان الفتح العقائدي لهذه البلاد هو الأساس الأول والأسمى للفتح الذي جاءهم بالإسلام الصافي من شوائب النحل التي نشأت فيما بعد، «.. فالمغرب يومئذ كان في تدينه بالإسلام متمسكا به لا على طريقة المذهبية أو السياسية في عقيدته أو في عبادته أو في معاملاته كلا، بل نراه بعيدا عن ذلك كله... فكانت العقيدة والعبادة والمعاملة هي كل ما جاء به الصحابة والتابعون معهم لفتح هذه البلاد.»¹⁰

هكذا دخلت عقيدة التوحيد وعبادة الله تعالى عقول البربر - السكان الأصليين- وقلوبهم وأروها فطرية مقبولة فسعوا إلى الاستزادة منها من العلماء، فأدركوا أن الفاتحين ليسوا غزاة مثل الرومان والوندال والبيزنطيين جاؤوا لأخذ بلادهم وثرواتهم إنما قدموا بالعلم الذي يفتح القلوب والأبصار والأفئدة ويعرفها بخالقها ومعبودها الحق.

وبذلك كان إسلام البربر مبكر جدا فقد دخلوا فيه أفواجا، وشاركوا في بناء حضارة الإسلام وفتح البلاد المجاورة وساهموا في تخطيط القيروان مع الفاتحين.¹¹

10 - تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي: 213/1. ونحوه في: 234/1.

11 - ينظر: فتح العرب للمغرب، حسين مؤنس؛ ص: 301/300 بتصرف.

وكان أهل المغرب مرجعهم في تدينهم وشعائرتهم الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين وما كان عليه الصحابة، قال العلامة عبد الرحمن الجيلالي: « وكان أهل المغرب في صدر الإسلام يذهبون في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم حسب ما يرشد إليه الكتاب والسنة، وما ورد في ذلك من آثار عن السلف الصالح، من غير انتماء إلى مذهب أو طائفة أو فرقة أو نحلة.. »¹².

ويتجلى ذلك بَيِّنًا في منهج العلماء الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز إلى المغرب ليفقهوا ويعلموا أهله تمييزاً للفتح الإسلامي، وكان هؤلاء الفقهاء على مذهب الصحابة الكرام عقيدة وفقها فنشروها غضة طرية كما رووها في جميع أبواب الشريعة وكان أميرهم إسماعيل بن أبي المهاجر، قال ابن عذاري: «.. وفي سنة 100 ولي إسماعيل بن أبي المهاجر أفريقية من قبل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فكان خير أمير وخير وال وما زال حريصاً على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلم بقية البربر بأفريقية على يده في دولة عمر بن عبد العزيز وهو الذي علم أهل أفريقية الحلال والحرام وبعث معه عمر - رضي الله عنه - عشرة من التابعين أهل علم وفضل منهم عبد الرحمن بن رافع وسعد بن مسعود التجيبي وغيرهما وكانت الخمر بأفريقية حلالاً حتى وصل هؤلاء التابعون فبينوا تحريمها - رضي الله عنه - »¹³.

وهؤلاء العلماء هم:¹⁴

1. إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر: ولاء عمر بن عبد العزيز على إفريقية في المحرم سنة 99 . 100هـ، وكان والياً عالماً.
2. بكر بن سودة الجذامي، أبو ثمامة؛ (ت 128 هـ بإفريقية).
3. جُعثل بن عاهان الرُّعيني القتباني، أبو سعيد (ت حوالي 115 هـ)
4. حبان بن جبلة القرشي: مولاهم، ودفع الوهم بأن عمر رضي الله عنه أرسله لتفقيه أهل مصر ت 125 هـ وقيل 122 هـ بالقيروان.
5. سعد بن مسعود التجيبي: أبو مسعود (ت بالقيروان).
6. طلق ابن جعبان الفارسي، وقيل: جابان.
7. عبد الرحمن بن رافع التنوخي، أبو الجهم (ت بالقيروان سنة 113 هـ):... وهو أول من ولي قضاء القيروان وتوفي بها سنة 113 هـ .

12 - تاريخ الجزائر العام، 234/1.

13 - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 48/1.

14 - ينظر: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي، 7/138-268، تاريخ دمشق، ابن عساكر، 20/401، التكملة لكتاب الصلة، للقضاعي، 1/176، تهذيب التهذيب، ابن حجر، 2/89،

8. عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة الكنايني.

9. عبد الله بن يزيد المعافري الحبلي، أبو عبد الرحمن ت بالقيروان 100هـ.

10. وهب بن حي المعافري.

وكان هؤلاء العلماء على جانب كبير من العلم والزهد والورع، كما ظهر ذلك من خلال تراجمهم، فقد نشروا الإسلام على أصوله الأولى وقواعده الصحيحة التي بنت مرجعية دينية قائمة على الكتاب والسنة والإجماع المتوارث عن الصحابة الكرام، «.. وكان هؤلاء العشرة آثار هامة في القرآن الكريم وتفسيره والحديث وفي نشر السنة العملية والإعتقادية الصحيحة، وساعدوا ولاة أمور المسلمين على مقاومة النحل الخارجية وتركيز أحكام الإسلام بين البربر فقد روى المالكي أنه لما ثارت الخوارج على حنظلة ابن صفوان بطنجة سنة 122هـ جمع حنظلة علماء إفريقية وهم الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية ليفقهوا أهلها فكتبوا هذه الرسالة ليقتدي بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها»¹⁵ وهي : «... فإن أهل العلم بالله وبكتابه وسنه نبيه صلى الله عليه وسلم يعلمون أنه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل إلى عشر آيات: أمرة وزاجرة ومبشرة، ومنذرة، ومخبرة، ومحكمة، ومتشابهة، وحلال وحرام وأمثال، فأمرة بالمعروف وزاجرة عن المنكر، ومبشرة بالجنة، ومنذرة بالنار ومخبرة ببحر الأولين، والآخرين، ومحكمة يعمل بها، ومتشابهة يؤمن بها، وحلال أمر أن يؤتى، وحرام أمر أن يجتنب، وأمثال واعظة فمن يطع الأمرة وتزجره الزاجرة فقد استبشر بالمبشرة وأندرت المنذرة، ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام، ويرد العلم فيما اختلف فيه الناس إلى الله، مع طاعة واضحة ونية صالحة فقد فاز وأفلح وأنجح وحيأ حياة الدنيا والآخرة والسلام»¹⁶.

فظهر من خلال هذه الرسالة أن الكتاب والسنة هما المرجع الأساس عند التخاصم والنزاع، وأن هذه المذاهب العقديّة الجديدة الخارجيّة نحل محدثة لا أصل لها من كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإنما الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة هو التمسك بهما والعمل بما فيها، فعاد أهل المغرب إلى العهد الأول الذي كان عليه السلف.

«.. فكان المغاربة في صدر الإسلام لذلك على مذهب جمهور السلف من الأمة واعتقادهم وهو المذهب الحق إلى أن حديث فيهم بدعة الخارجية لأول المائة الثانية من الهجرة»¹⁷.

15 - عمر بن عبد العزيز معالم التحديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوة، علي محمد الصلاحي، ص: (260 - 261).

16 - رياض النفوس، للمالكي، 1/ 102 - 103.

17 - الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، للسلاوي، 1/ 63.

قال العلامة الجيلالي: «.. فالعقيدة الإسلامية والقيام بجميع الواجبات الدينية كان ذلك كله سائر على الطريقة السلفية لا شائبة فيه لمنهج خاص أو منحى من المناحي المختلفة التي انتهجها أو اضطر للأخذ بها أهل المذاهب الإسلامية فيما بعد..»¹⁸.

ثم ما لبث أن اعتنق أهل المغرب الحركات الخارجية والشيعية التي ظهرت بسبب الخلافات بين ولاية البلاد وقادتها وسوء معاملاتهم لأهلها؛ فازدهرت فيهم المذاهب الصغرية والإباضية والشيعية الإسماعيلية، فانقسم المغرب إلى دويلات متناحرة مختلفة العقائد وكان أشدها على الإسلام التشيع الباطني.¹⁹ وفي خضم هذا وذاك تزامن مع وجود هذه الحركات والمذاهب دخول المذهب الحنفي والمالكي إلى المغرب الإسلامي باعتبار الأول السباق إلى الوجود تاريخياً فقد توفي إمام المذهب أبو حنيفة سنة 150هـ، وأما ملك فقد توفي سنة 179هـ، وكان نتيجة رحلة تلاميذ أولئك العلماء الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز؛ للاستزادة من العلم فيمّموا العراق والشام ثم الحجاز للحج، فأخذوا المذهب الحنفي والأوزاعي والمالكي، فتتلمذ لهؤلاء جلة من الفقهاء الذين نشروا مذاهبهم في المغرب والأندلس، « بيد أن رحلتهم إلى مالِك وتلاميذه تختلف عن الرحلة إلى أبي حنيفة والأوزاعي والثوري والليث بن سعد كما ونوعاً فقد اهتموا أكثر بمالِك..»²⁰ ومذهبه مما وطّن له أكثر في بلاد المغرب.

«..وغلب مذهب أبي حنيفة على الكوفة والعراق وما وراء النهر وكثير من بلاد خراسان إلى وقتنا وظهر بإفريقية ظهوراً كثيراً إلى قريب من أربعمئة عام فانقطع منها ودخل منه شيء ما وراءها من المغرب قديماً بجزيرة الأندلس وبمدينة فاس، وغلب مذهب الأوزاعي على الشام وعلى جزيرة الأندلس أولاً إلى أن غلب عليها مذهب مالِك بعد المائتين فانقطع.»²¹

وقال أبو الحسن المغربي: « سَمِعْتُ الْفَقِيهَ الْحَافِظَ أَبَا مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ بْنِ أَحْمَدَ يَقُولُ مَذْهَبَانِ انْتَشَرَا فِي بَدَأِ أَمْرِهِمَا بِالرِّيَاسَةِ وَالسُّلْطَانِ مَذْهَبَ أَبِي حَنِيفَةَ فَإِنَّهُ لَمَّا وَلِيَ قَضَاءَ الْقُضَاةِ أَبُو يُوسُفَ كَانَتْ الْقُضَاةُ مِنْ قَبْلِهِ فَكَانَ لَا يُوَلِّي قَضَاءَ الْبِلَادِ مِنْ أَقْصَى الْمَشْرِقِ إِلَى أَقْصَى أَعْمَالِ إفْرِيقِيَّةِ إِلَّا أَصْحَابَهُ وَالْمُنْتَمِينَ إِلَى مَذْهَبِهِ.»²²

18 - تاريخ الجزائر العام، 142/1.

19 - ويرى د:حسين مؤنس أن لهذه الحركات الأثر البارز انتشار الإسلام بين بربر المغرب، والتفاف أهله حول دعائها، وبذلك صح إسلام الكثيرين منهم.. ينظر: فتح العرب للمغرب: ص، 309. والحقيقة أن هذا الكلام فيه نظر؛ إذ لم تكن الدعوة العبيدية إلا وبالاً على الإسلام وأهله فكانت دعوة باطنية مارقة أنكرها علماء الأمة جميعاً وهذا لا يحتاج إلى دليل،

20 - الحياة العلمية في إفريقية، يوسف بن أحمد حوالة، (117/1-118)؛ بتصرف.

21 - ترتيب المدارك، للقاضي عياض، (65-66).

22 - المغرب في حلى المغرب، (164/1).

ثانياً: المذهب المالكي في المغرب الإسلامي:

لا شك أن لعلم المدينة مكانة عظيمة عند أهل المغرب؛ إذ هي مهبط الوحي ومركز وجود علماء أجلاء؛ لذلك حظيت باهتمام المغاربة في الرحلة للعلم من جهة وللعبادة من جهة أخرى، فقد تتلمذ لملك الكثير منهم كان لهم الفضل الكبير في نشر مذهبه في المغرب والأندلس فنقلوا موطأه وفتاواه وأقواله، وأسسوا قاعدة مرجعية للفقهاء والفتوى تأصيلاً وتنظيراً وتخريجاً ودفاعاً عنه واحتجاجاً له في البلاد التي انتشر فيه.

ومن هؤلاء:

- 1- علي بن زياد التونسي العبسي: أبو الحسن. سمع من مالك وسفيان الثوري والليث ابن سعد، وابن لهيعة وغيرهم، لم يكن بعصره بإفريقية مثله. سمع منه البهلول بن راشد وسحنون وشجرة وأسد بن الفرات وغيرهم. وروى عن مالك الموطأ، وكتب سماعه من مالك الثلاثة. قال أبو سعد بن يونس: هو أول من ادخل الموطأ وجامع سفيان المغرب، وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه. وكان قد دخل الحجاز والعراق في طلب العلم وهو معلم سحنون الفقيه. قال الشيرازي به تفقه سحنون وله كتب على مذهبه وتفقه بمالك وله كتاب خير من زنته²³. وكان أشهر من نشر مذهب مالك في المغرب.
- 2- عبد الله بن غانم القاضي: «كنيته أبو عبد الرحمان قال أبو العرب التميمي: كان ثبناً ثقة فقيهاً عدلاً في قضائه... ودخل إلى الحجاز والشام والعراق فسمع من مالك وعليه اعتماده، ... ولما ولي القضاء أعلم مالك بذلك أصحابه، وسر به. ويقال أن مالكاً عرض عليه أن يزوجه ابنته ويقوم عنده، فامتنع عن المقام، وقال له: إن أخرجتها إلى القيروان تزوجتها. وله سماع من مالك مدون، انقطع. ومنه في المجموعة مسائل. وسمع الموطأ»²⁴.

23 - ترتيب المدارك، للقاضي عياض، (80/3).

24 - ترتيب المدارك، للقاضي عياض، (66-65/3).

- 3- أبو محمد عبد الله بن فروخ الفارسي فقيه القيروان في وقته. سمعتُ ابن حماد يقول : قال السعدي رأيت بن أبي مریم حسن القول فيه. قال هو أرضى أهل الأرض عندي.²⁵
- 4- عبد الرحيم بن أشرس: وكان ثقة، قال سحنون: كان علي بن زياد خير أهل إفريقية في الضبط للعلم، وكان ابن أشرس أحفظ على الرواية، وكان شديد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.²⁶
- 5- أسد بن الفرات بن سنان: وقد كان علم القرآن ببعض القرى، ثم اختلف إلى علي بن زياد بتونس، فلزمه وتعلم منه وتفقه بفقهه، ثم رحل إلى المشرق، فجمع من مالك ابن انس موطأه، وغيره. قال أبو اسحاق الشيرازي: لما قدم أسد مصر أتى إلى ابن وهب وقال هذه كتب أبي حنيفة، وسأله أن يجيب فيها على مذهب مالك. فتورع ابن وهب وأبى. فذهب إلى ابن القاسم فأجابه إلى ما طلب. فأجابه فيما حفظ عن مالك بقوله. وفيما شك قال: أخال وأحسب وأظن به، ومنها ما قال فيه، سمعته يقول في مسألة كذا وكذا. ومسألتك مثله، ومنه ما قال فيه باجتهاده على أصل قول مالك، وتسمى تلك الكتب الأسدية... قال: ولما أردت الخروج إلى إفريقية دفع إليّ ابن القاسم سماعه من مالك. وقال لي ربما أحببتك وأنا على شغل. ولكن أنظر في هذا الكتاب فما خالفه مما أحببتك فيه، فأسقطه. ورغب إلي أهل مصر في هذه الكتب فكتبوها مني. قال وهي الكتب المدونة وأنا دونتها. وأخذ الناس عن ابن القاسم تلك الكتب.²⁷

فهؤلاء طائفة من أهل العلم من أهل المغرب الذين سمعوا من مالك ودونوا علمه وفقهه وبنوه في الناس اقتصر عليهم لمقام الحديث عن المغرب الإسلامي، على غرار غيرهم أيضا من المدنيين والشاميين والمصريين والأندلسيين ممن سمع مالكا وتفقهوا له.

أما الذين لم يسمعوا مالكا وأخذوا بمذهبه والتزموه من أهل إفريقية والمغرب فجملة وافرة نذكر منهم:

- 1- أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي(240هـ): فسمع سحنون في رحلته إلى مصر والحجاز، من ابن القاسم، وابن وهب، وأشهب، .. وانصرف إلى إفريقية، سنة إحدى وتسعين ومائة. قال سحنون: سمع مني أهل جدابية سنة إحدى وتسعين. وفيها مات ابن القاسم. قال: وخرجت إلى ابن القاسم، ابن خمس وعشرين. وقدمت إفريقية ابن ثلاثين سنة. ولي سحنون قضاء إفريقية، سنة أربع وثلاثين ومائتين، وسنه إذ ذاك أربع وسبعون سنة. فلم يزل قاضياً إلى أن مات،... قال محمد بن أحمد بن تميم في كتابه قال: كان سحنون ثقة حافظاً للعلم فقيه البدن. اجتمعت فيه خلال قلما اجتمعت في غيره. الفقه البارع

25 - الكامل، ابن عدي، (332/5)، طبقات علماء إفريقية، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم المغربي، ص:106.

26 - الديراف المذهب في معرفة أعيان المذهب، ابن فرحون، (152/1)، ترتيب المدارك، للقااضي عياض، (85/3).

27 - سير أعلام النبلاء، الذهبي، (226/10).

- والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهادة في الدنيا، والتخشن في الملبس، والمطعم، والسماحة. انتشرت إمامته في المشرق والمغرب. وسلم له الإمامة أهل عصره، واجتمعوا على فضله وتقديمه.²⁸
- قال ابن حبان: من أهل إفريقية من فقهاء أصحاب مالك ممن جالسه مدة روى عنه أكثر من ثلاثين ألف مسألة وكان يفرع على مذهبه وهو الذي أظهر علم مالك ومذهبه بالمغرب روى عنه.²⁹
- 2- أبو جعفر موسى بن معاوية الصمادحي (225هـ): « قال أبو العرب: وكان على فقهه مأموناً عالماً بالحديث والفقه، كثير الأخذ عن رجاله المدنيين، والكوفيين والبصريين، وغيرهم. سمع من وكيع ابن الجراح، والفضل بن عياض، وعلي بن مهدي، وطبقتهم، وجريز بن عبد الله، وأبي معونة الضرير، وسمع من ابن القاسم وغيره. سمع منه سحنون وعامة أهل إفريقية، وسمع منه ابن وضاح، وأحمد بن يزيد القرشي،.. قال أبو الحسن الكوفي: لم يكن في إفريقية محدث، إلا موسى بن معاوية، وعباس الفارسي، قال مغيث: قلت لسحنون إن موسى جلس يفتي في الجامع، فقال: ما جلس في الجامع منذ ثلاثين سنة أحق بالفتوى منه. وكان سحنون يجله ويعظمه ويوفي حقه في العلم ويقدمه بين يديه في المجالس.. »³⁰.
- قلت: كفى به تشريفا وتعظيما أن يقدمه سحنون ومن هو في العلم والفقه.
- 3- حماد بن يحيى أبو يحيى السجلماسي: عداده في أهل القيروان. سمع عبد الله بن بكر السهمي وابن الماحشون. وهو أول من قدم بفقته ابن الماحشون القيروان.³¹
- 4- زيد بن بشر بن زيد بن عبد الرحمن الأزدي: وكان فقيهاً من أكابر أصحاب ابن وهب، وعدّه الشيرازي في فقهاء هذه الطبقة. قال ابن وضاح: وكان ثقة الثقات.³²
- 5- شجرة بن عيسى المعافري أبو شجرة: وولي شجرة قضاء تونس أيام سحنون وقبله. قال سحنون: ما رأيت من قضاة البلدان إلا شجرة وشرحبييل قاضي طرابلس. وأخذ عن شجرة جماعة من أصحاب سحنون وغيرهم.³³

28 - ترتيب المدارك، للقاضي عياض، (4/48-56)، والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي، (1/109)، سير السلف الصالحين، لإسماعيل بن محمد الأصفهاني، (1117).

29 - الثقات، (8/299).

30 - تاريخ مصر، لابن يونس، (2/240). طبقات علماء إفريقية، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم المغربي، ص: 106، ينظر أيضا: ترتيب المدارك، للقاضي عياض، (4/93-94).

31 - ترتيب المدارك، للقاضي عياض، (4/97).

32 - تاريخ الإسلام، الذهبي، (18/277).

33 - التكملة لكتاب الصلاة، ابن الأبار، (4/03)، تاريخ الإسلام، الذهبي، (20/04)

هؤلاء وغيرهم كانوا أساطين الفقه والعلم على مذهب مالك به يفتون ويقضون بين الناس؛ فانتشر في المغرب ويمكن له القضاة إذ كان سحنون لا يولي القضاء إلا من كان مالكيًا، كما كان سليمان بن عمران في زمنه لا يولي إلا من كان حنفيًا؛ وقد كانا من الأقران في بلد واحد زمن الأمير محمد بن الأغلب الذي نصر المذهب لما استقضى سحنوناً.³⁴

ويصور لنا القاضي عياض حالة العلم والفقه في أفريقية وأبرز علمائها الذين بثوا علم مالك ونشروا مذهبه قائلاً: «قال محمد بن الحارث: كانت أفريقية قبل رحلة سحنون، قد غمرها مذهب مالك بن انس، لأنه رحل إليها أكثر من ثلاثين رجلاً، كلهم لقي مالك بن أنس وسمع منه. (أن) كان الفقه والفتيا إنما كان في قليل منهم، كما ذلك في علماء البلاد، ثم قدم سحنون بذلك المذهب، واجتمع له مع ذلك فضل الدين، والعقل والورع والعفاف والانقباض. فبارك الله فيه للمسلمين. فمالت إليه الوجوه، وأحبته القلوب وصار زمانه كأنه مبتدئاً قد أحمى ما قبله. فكان أصحابه سرج أهل القيروان، (فرأيتهم) عالمها وأكثرهم تأليفاً، وابن عبدوس فقيهاً، وابن غانم عاقلها، وابن عمرو حافظها، وجبله زاهدها، وحمديس أصليهم في السنة وأعدهم للبدعة، وسعيد بن حداد لسانها وفصيحتها، وابن مسكين أرواهم للكتب والحديث وأشهدهم للوقار وتصونا لكل هذه الصفات مقصورة على وقتهم».³⁵

ثالثاً: الأسباب التي مكنت لمذهب مالك في المغرب:

لقد اجتمعت لمذهب مالك الكثير من العوامل التي مكنت له منها الذاتية منها والخارجية والمتمثلة فيما يأتي:

أ/ العوامل الذاتية:

- 1- مكانة مالك في العلم والعمل والزهد والورع خاصة في المدينة النبوية؛ إذ كان مثلاً للحفظ والإتقان والفقه والاجتهاد والفضائل الباهرة، وسارت بعلمه وفقهه الركبان.
- 2- الطبيعة المكانية التي وجد فيها مالك أعني "المدينة النبوية" ومكانتها الدينية في نفوس المسلمين؛ إذ هي مهبط الوحي ومهاجر النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ورث أهلها علم النبوة وتناقلوه جيلاً بعد جيل إلى عصر مالك مع علو في الإسناد وقرب مالك زمنياً فهو من أتباع التابعين.

34 - ترتيب المدارك، للقاضي عياض، (56/4)، باختصار.

35 - - ترتيب المدارك، (51/4).

3- فضل علم المدينة وتميز أصول الاستدلال عند مالك، واعتماده الحديث والأثر _ عمل أهل المدينة _ والتقليل من القياس والرأي.

4- تأثر المغاربة بمالك خاصة الذين رحلوا إليه للسمع منه وأخذ العلم، وقد ظهر نبوغه على أقرانه في المدينة وغيرها، فقد أعجبوا به لما ذكرنا سلفا.

ب/ العوامل الخارجية:

1- كثرة الحركات الخارجية والفرق الكلامية التي ظهرت في افريقية بعد العهد الأول: اعتمد الناس في العهد الأول من دخول الإسلام إلى المغرب القرآن والسنة والأثر دون غيرها؛ فلما ظهرت الطوائف الكلامية والحركات الخارجية ووقع الاختلاف بين أصحاب أبي حنيفة في المذهب نبذ أهل المغرب كل نحلة وطائفة ورجعوا إلى القرآن والسنة حتى إنهم رفضوا الإجماع والقياس.

قال العلامة عبد الرحمن الجيلالي وهو يتحدث عن ظهور الخلافات في مذهب أبي حنيفة مما أدى إلى نفور أهل المغرب منه واعتمادهم الكتاب والسنة فقط: «... فابتعدوا لذلك عن مذهب أبي حنيفة الذي اشتهر أهله بالرأي والقياس فتركوا فقهه ونبذوا عقائد المعتزلة ... وتمسكوا بالكتاب والسنة تمسكا شديدا حتى إنهم رفضوا الإجماع والقياس..»³⁶.

2- نصره بعض الساسة وأمراء "الأغلبية" المذهب لما استقضوا أعلام المالكية: لقد كان الولاة والأمراء والسلاطين الذين حكموا المغرب وإفريقية يولّون القضاء من كان على مذهبهم إذ كانوا حنفية، ولما كثر المالكية وانشر المذهب المالكي انتشارا واسعا خاصة بين الرعية والعلماء ضاق الأمر وظهرت القلائل والفتن وتناحرت الطوائف، واشتد الخلاف بين الحنفية أنفسهم ثم مع المالكية من جهة أخرى، كما سبق بيانه _ أراد بعض الأمراء "محمد بن الأغلب التميمي" أن يستقضي أعلم الناس وأحقهم بالقضاء فوقع الاختيار على سحنون بعد أن دار عليه عاما كاملا، ومن هنا كانت نقطة تحول بالنسبة للمذهب، حيث مكن له وكان سحنونا لا يولي القضاء إلا من كان مالكيا، وبذلك أصبحت إفريقية أكثرها على مذهب أهل المدينة.³⁷

36 - تاريخ الجزائر العام، 1/216.

37 - ينظر: ترتيب المدارك، للقاضي عياض، (4/48-56)، والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن غداري المراكشي، (1/109)، المحن، أبو العرب المغربي، ص: 466-467، طبقات علماء إفريقية، أبو العرب، (ص: 101-104). الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون، (1/160).

تولى فقهاء المالكية القضاء والفتيا: وبهما انتشر المذهب وساد وإليه تحاكم الناس في الفتوى والعقيدة، ورضوه ونبذوا وتركوا غيره من المذاهب الكلامية والفقهية إلا قليلا، وكان لتولي سحنون القضاء وغيره من المالكية الأثر البارز في سيادة المذهب في المغرب، خاصة لما اشتهر عنهم من الصرامة في الحق وعدم الخوف من السلطان، ونصرة المظلوم ورد الظالم أيًا كانت منزلته، وقصة أخذ سحنون الموثيق العظيمة والأيمان المغلظة من محمد بن الأغلب لما استقضاه خير دليل على ذلك.

جاء في ترتيب المدارك: «.. قال محمد بن سحنون: ولي سحنون القضاء بعد أن أدير عليه حولاً، وأغلظ عليه الغلظة. وحلف عليه محمد بن الأغلب بأشد الإيمان، فولي يوم الاثنين الثالث من رمضان سنة أربع وثلاثين ومائتين. فأقام أياماً ينظر في القضاء، يلتمس أعواناً. ثم قعد للناس يوم الأحد بعده، في المسجد الجامع، بعد أن ركع ودعا بدعاء كثير. وقال سحنون: لم أكن أرى قبول هذا الأمر، حتى كان من الأمير ضمينان: أحدهما أعطاني كل ما طلبت، وأطلق يدي في كل ما رغبت، حتى أتي قلت له: أبدأ بأهل بيتك، وقرابتك، وأعوانك، فإن قبلهم ظلمات الناس، وأموال لهم، منذ زمان طويل؛ إذ لم يجترئ عليهم من كان قبلي، فقال لي: نعم لا تبدأ إلا بهم، واجر الحق على مفرق رأسي. فقلت له: الله، قال لي: الله، ثلاث مرات. وجاءني من عزمه مع هذا، ما يخاف المرء على نفسه، وفكرت فلم أجد أحد يستحق هذا الأمر، ولم أجد لنفسي سعة في رده»³⁸.

المبحث الثالث: أعلام المذهب المالكي في الجزائر:

كان لازدهار الحواضر العلمية في المغرب الأدنى والأقصى الأثر البالغ في بروز علماء من المغرب الأوسط (الجزائر) كان لهم الدور البارز في التمكين للمذهب المالكي والدفاع عنه خاصة مع ظهور الدولة العبيدية والموحدية، ومع تولي المالكية القضاء في المغرب وإفريقية استطاع المذهب أن يتبوأ مقاما عاليا.

المدرسة المغربية: لم يكن المغرب الأوسط في منأى عن واقع الحياة العلمية التي عليها جيرانه من المغرب الأقصى والأدنى إذ هي امتداد لها وينبوع واحد لا تفصله الحدود السياسية المعاصرة، فكان المغرب وإفريقية كلها ذات واقع علمي موحد اشترك روادها وأئمتها في الشيوخ الذين أخذوا عن مالك أو عن تلاميذ مالك، ممن نقلوا الموطأ والمدونة، منهم علي بن زياد، وعبد الرحيم بن الأشرس، والبهلول بن راشد، وعبد الله بن غانم، أسسوا للمغرب كله مرجعية علمية فقهية مالكية، ثم انتقل الأمر إلى عاملين كبيرين: أسد بن الفرات (213هـ) صاحب الأسدية، وسحنون (240) صاحب المدونة عن مالك، ثم من بعدهم ابن أبي زيد.

ولأن الأمر يتعلق بالمغرب الأوسط تحديدا سأحاول أن أبين أشهر أعلامه المالكية الذين مكنوا للمذهب ونصروه ودافعوا عنه خاصة في العصور الأولى من وجوده في إفريقية، ويمكن الحديث عن هذا تحت عنصرين اثنين:

الأول: من جانب التأليف والتدريس، ويلحق به القضاء أيضا.

الثاني: من جانب الدفاع والردود على المخالفين.

أولاً: خدمة أعلام الجزائر للمذهب المالكي من جانب التأليف والتدريس والقضاء:

لقد بدأ علماء المالكية في التأليف مبكرا منذ العهد الأول، خاصة تدوين مسائل الإمام مالك الفقهية والعقدية، وظهر ذلك من خلال المدونة وغيرها، كما اهتموا بنقل الموطأ ونشره وشرحه، منذ دخوله إلى المغرب عن طريق علي بن زياد التونسي ت:183هـ، إلا أن تعاقب الدويلات المنشقة عن الخلافة العباسية في المشرق سواء المؤيدة لها أو المستقلة عنها جعل المذهب المالكي يتراوح بين المد والجزر، وبين الظهور أحيانا والانحسار أحيانا أخرى حسب عقيدة وفقه تلك الدول التي ظهرت في المغرب، ويمكن عرض حالة المذهب من حيث التأليف والشرح والتدريس والانتشار ومن خلال ذلك نبين الأزمات التي تعرض لها.

لقد عايش المذهب المالكي في المغرب الأوسط عدة دول: الرستمية، والإدرسية، والأغلبية، ثم العبيدية، ثم الصنهاجية، ثم الحمادية والمرابطين والموحدين:

كان المذهب الإباضي الخارجي هو المذهب الرسمي للدولة، فنصرته ودعت إليه ونشرته، واستقدمت ونسخت كتب علمائها، ومكنت لهم في المساجد والأماكن العامة، ودعت لمناظرة علماء المذاهب الأخرى، وهذا شأن كل دولة قامت على مذاهب ونحل معينة تعتقد أنها الناصرة للدين والملة والكتاب والسنة، غير أن المذهب الحنفي والمالكي لا يزال منتشرين بين أظهرهم.

قال العلامة المبارك المليي: « وكان بالمملكة التيهرتية مذاهب غير الإباضية؛ منها الصفرية.. والعراقيون المشهورون بالرأي والقياس، والحجازيون المشهورون بالسنة والأثر، ولهذا الطوائف مساجدها وعلماءها وحلق دروسها، وكانوا بتيهت يجتمعون للمناظرة والمباحثة في دائرة الأدب وقانون العلم بغاية الحرية »³⁹.

ونقل عن ابن الصغير قوله: « ولا يمنعون أحدا من الصلاة في مساجدهم ولا يكشفون عنه حاله، ولو رأوه رافعا يديه، ما خلا المسجد الجامع فإنهم إذا رأوا فيه من رفع يديه منعه وزجروه فإن عاد ضربوه »⁴⁰.

قلت: لأن المسجد الجامع يدل على مذهب الدولة وسلطانها، وهو جامع الإمام، ورمز من رموز ما تدين به تلك الدولة من عقيدة وفقه، ولو خلا منه ذلك لكان غيره أقرب للخلو، وكان أقرب للزوال والانقراض.

ولم يمنع هذا كله من ظهور علماء المالكية إلى جانب شيوخ المذهب الإباضي الخارجي الذين كان لهم الرأي والسدد في الدولة وقد « نبع في العصر الرستمي عدد كبير من العلماء، كان شيوخ المذهب منهم بصفة خاصة يمثلون فئة اجتماعية ذات شأن كبير في "تاهرت"، وكان بينهم علماء سنون مالكيون كإبراهيم بن عبد الرحمن التنسي المالكي، وقاسم بن عبد الرحمن، وزكريا بن بكر، وابن الصغير المالكي»⁴¹.

وإن كانت الدولة الرستمية خارجية في عقيدتها إباضية في فقهها إلا أنها سمحت للمذهب المالكي بالظهور والانتشار ولو بنسبة معينة، للحصول على الرضا على ما تصنع نظير هذه الحرية الدينية في المذاهب، وليس رغبة في المالكية وعقيدتهم السننية ولكن حفاظا على جمع قلوب علمائهم وعامتهم على هذه الدولة، وتجنبنا للصدامات والخلافات التي قد تؤول إلى الثورات والنزعات التي تقض أضجاع الدولة.

ومن علماء المالكية الذين برزوا في المغرب الأوسط، وقد نشره بين الناس:

01/ أبو الوليد مروان المسيلي 240هـ: قَالَ أَبُو الْعَرَبِ: «وَمَمَّنْ هُوَ فِي مِثْلِ سِنَّ سُحْنُونِ بْنِ سَعِيدٍ، مَرْوَانُ بْنُ أَبِي شَحْمَةَ، وَهُوَ مَوْلَى آلِ عَامِرِ بْنِ نَافِعٍ، كَانَ ثِقَةً، شَيْخًا، صَالِحًا...، وَكَانَ فَاضِلًا، وَكَانَ سُحْنُونٌ يَعْرِفُ لَهُ فَضْلَهُ. وَكَانَ يُرْمَى بِشَيْءٍ مِنَ التَّشْبِيهِ، وَكَانَ بَعِيدًا مِنْهُ، وَقَدْ قِيلَ لِسُحْنُونٍ: إِنَّ مَرْوَانَ يَرَى التَّشْبِيهِ، فَلَمْ يَقْبَلْ ذَلِكَ عَلَيْهِ سُحْنُونٌ، فَقَالَ: مَرْوَانُ لَا يَقُولُ إِلَّا مَا رَوَى»⁴².

قلت: هذا نموذج من نبد المالكية للتشبيه الذين رمي به أهل السنة المالكية، وإنما حسد أبو الوليد لمكانته وعلمه وفضله عند الناس، وكان قوالا بالحق صادحا به، أمرا بالمعروف ينهى عن المنكر، يغير المنكرات قدر طاقته، ويظهر ذلك من خلال فعله في قصر الأمير الأغلي.

قَالَ أَبُو الْعَرَبِ: « وَكَانَ قِيلَ لِلْأَمِيرِ يَوْمَئِذٍ، وَأَحْسَبُهُ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَعْلَبِ: إِنَّهُ مُشَبَّهٌ، فَوَجَّهَ فِي طَلَبِهِ، فَوَافَى قَبْلَ دُخُولِهِ خَصِيًّا بِيَدِهِ عُوْدٌ أَوْ طُنْبُورٌ، فَأَخَذَهُ مَرْوَانُ مِنْهُ بِنَزَعٍ عَنيفٍ، فَكَسَّرَهُ، فَدَخَلَ الْخَصِيُّ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ الْأَعْلَبِ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ شَيْخًا بِالْبَابِ قَدْ كَسَرَ مِنْ يَدِي كَذَا وَكَذَا، وَخَرَّقَ الْخَصِيُّ ثِيَابَهُ لِعَظِيمِ نَازِلَتِهِ عِنْدَ نَفْسِهِ،

40 - المصدر نفسه، (79/2).

41 - الدولة الرستمية في المغرب الإسلامي، محمد عيسى الحريري، ص: 237.

42 - طبقات علماء إفريقية، ص: 115-116. رياض النفوس، 392/2. ينظر: تاريخ الجزائر، للعلامة الجليلي، 1/222.

فَلَمَّا دَخَلَ مَرْوَانُ عَلَى الْأَمِيرِ عَاتَبَهُ الْأَمِيرُ فِيمَا صَنَعَ، فَقَالَ لَهُ: فَقَرَأَ عَلَيْهِ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: 1] حَتَّى خَتَمَهَا». ⁴³

02/ علي الميلي المغربي: وكان من الفقهاء المفتين، وله ذكر في قصة جاءت في عجائب الآثار في 236هـ: قال: «استهل شهر المحرم بيوم الاثنين وفي أوائله حضر الباشا من الإسكندرية وفيه من الحوادث أن الشيخ إبراهيم الشهير بباشا المالكي بالإسكندرية قرر في درس الفقه أن ذبيحة أهل الكتاب في حكم الميتة لا يجوز أكلها وما ورد من إطلاق الآية فإنه قبل أن يغيروا ويبدلوا في كتبهم فلما سمع فقهاء الثغر ذلك أنكروه واستغربوه ثم تكلموا مع الشيخ إبراهيم المذكور وعارضوه فقال: أنا لم اذكر ذلك بفهمي وعلمي وإنما تلقيت ذلك عن الشيخ علي الميلي المغربي وهو رجل عالم متنوع موثوق بعلمه ثم أنه أرسل إلى شيخه المذكور بمصر يعلمه بالواقع فألف رسالة في خصوص ذلك وأطنب فيها فذكر أقوال المشايخ والخلافات في المذاهب واعتمد قول الإمام الطرطوشي في المنع وعدم الحل وحشا الرسالة بالخط على علماء الوقت وحكامه وهي نحو الثلاثة عشر كراسة وأرسلها إلى الشيخ إبراهيم فقرأها على أهل الثغر فكثرت اللغط والإنكار خصوصا وأهل الوقت أكثرهم مخالفون للملة وانتهى الأمر إلى الباشا فكتب مرسوما إلى كتخدا بك بمصر وتقدم إليه بان يجمع مشايخ الوقت لتحقيق المسألة وأرسل إليه بالرسالة أيضا المصنفة فأحضر كتخدا بك المشايخ وعرض عليهم الأمر فلطف الشيخ محمد العروسي العبارة وقال الشيخ علي الميلي: رجل من العلماء تلقى عن مشايخنا ومشايخهم لا ينكر علمه وفضله وهو منعزل عن خلطة الناس إلا أنه حاد المزاج وب عقله بعض خلل والأولى أن نجتمع به ونتذاكر في غير مجلسكم ونهني بعد ذلك الأمر إليكم فاجتمعوا في ثاني يوم وأرسلوا إلى الشيخ علي يدعونه للمناظرة فأبى عن الحضور وأرسل الجواب مع شخصين من مجاوري المغاربة..» ⁴⁴

وكان لا يخاف في الله لومة لائم، - كغيره من مالكية ذاك الزمان - لأن الشرع كان عزيزا محمي الجنب، مقدرا مبجلا في نفوس الناس، لا يعرفون غيره من التشريعات ولا يركنون إلى الفلسفات والكلاميات، منهجهم الكتاب والسنة، ولم يكن فقه مالك إلا من هذين المصدرين الشريفين.

أما المناطق التي كانت تحت حكم الأدارسة (172-311هـ) فقد كانت مالكية، «جمع الناس - إدريس - على عقيدة السلف، ودعاهم إلى الاقتصار على مذهب الإمام مالك، وجاء بالموطأ فنشره بينهم..» ⁴⁵

43 - طبقات علماء إفريقية، ص: 115-116. رياض النفوس، 392/2.

44 - عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، 624/3.

45 - تاريخ الجزائر، للعلامة الجليلي، 250-251.

.. واشتهر عن أئمة الدولة الإدريسية الاعتراف بالعلم فكانوا حكاما وقضاة في نفس الوقت؛ لذا لم يكن لهم منصب القاضي، لأن الإمام إدريس الأول يجلس للحكم بين الناس، وفي سنة 189هـ اختار عامر بن محمد القيسي وعينه قاضيا، وقد سمع مالكا،.. وكان يحكم وفق المذهب المالكي⁴⁶.

أما المملكة الأغلبية (184هـ - 296هـ) : كانت تابعة للخلافة العباسية، التي كانت تأخذ بمذهب أبي حنيفة، فأصبحت حنفية أيضا، ولكن لا يزال يتمتع المالكية بتقدير واحترام عظيم عند الشعب، فانتشر بذلك المذهبان الحنفي⁴⁷ والمالكي،.. وطالما شاهدنا الجدل الاختلاف بين أتباعهما حتى صار إلى البطش بالمخالفين إلى حد القتل، لكن المالكية تصلبوا في التمسك بموقفهم حتى النهاية.

فكان الحكام على المذهب الأول والأفارقة وزعمائهم على المذهب الثاني، فبطش بهم الحكام فزاد ذلك من تقدير الناس لهم⁴⁸.

قلت: ومن هنا بدأ أهل المغرب بالاهتمام بمذهب مالك والتمسك به أشد التمسك ورأوا في الخروج عنه خروجا عن الدين والعقيدة الصحيحة، فأصبح بذلك المرجعية الفقهية والعقدية للناس في تلك البلاد.

وكانت العقائد و مباحث أصول الدين بعيدة عن الآراء الفلسفية والمذاهب الاعتزالية... وقد منع القاضي الصلاة خلف المتكلمين الذين يجادلون في الصفات.. ولما أصبح الاعتزال هو المذهب الرسمي للدولة العباسية أرغم الأغلبية الناس على هذا المذهب،.. ولكن ذلك لم يمنع الأغلبية الساحقة من التمسك بعقائد أهل السنة والعمل على مذهبي الإمامين مالك وأبي حنيفة. ا.هـ⁴⁹

ومن العلماء الفضلاء أيضا:

03/ أبو محمد عبد الله التاهرتي: وكان فاضلا عابدا، وكان يشير إلى المحبة والشوق⁵⁰.

46 - دولة الأدراسة بالمغرب، سعدون نصر الدين، ص: 125-126.

47 - ومن أعلام الحنفية: القاضي أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى البوني الفقيه الحافظ صاحب المسند. كان بصيرا بالفقهاء عارفاً بالحديث وعلله، زاهداً عابداً كبير القدر من أعيان الحنفية. توفي سنة 280هـ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، اليافعي، 144.

48 - تاريخ الجزائر، للعلامة الجيلالي، 216.

49 - تاريخ الجزائر، للعلامة الجيلالي، 1/268-269. بتصرف.

50 - رياض النفوس، 1/182.

04/ أبو عبد الرحمن بكر بن حماد: (ت:296هـ): وكان بتاهرت من حفاظ الحديث وثقات المحدثين المأمونين، سمع بالمشرق ابن مسدد وعمرو بن مرزوق وبشر بن حجر، وإفريقية ابن سحنون وغيرهم، وسكن تاهرت وبها توفي.⁵¹ وكان شاعرا، عالما بالحديث ورجاله، فقيها، من أفاضل المغرب.⁵²

05/ الفضل بن سلمة البجائي (ت 319هـ): له مختصر المدونة، والواضحة والموازية، وكتاب جامع مسائل الموازية.⁵³

وعادة ما يتبع التأليف تدريس وتعليم تلك المؤلفات ومناقشة مسائلها وقضاياها، ثم إجازتها وفق شروط الإجازة، وبذلك أسهم ابن سلمة في التمكين للمذهب المالكي رغم استفحال أمر العبيديين في إفريقية ولعل الفضل كان في مثل منزلة ابن أبي زيد القيرواني في المغرب الأدنى. الله أعلم.

وللقضاء الدور البارز، والأهمية القصوى في الحكم بين الناس بمذهب مالك فمن القضاة حماس بن مروان ابن سماك الهمداني: فقد وولى قضاء القيروان سنة 290هـ، وكان ورعا عالما بمذهب مالك وأصحابه، فعدل في أحكامه، ولم يكن يهيب أحدا في ولايته.⁵⁴

و بعد مجيء الدولة العبيدية (290-361هـ) وقضائها على الدول السالفة الذكر، غيرت معالم الحياة العلمية والثقافية والعقدية من جذورها، وأسست لمرجعية هدت أركان عقيدة أهل المغرب، وضربت المذاهب الفقهية السنة (المالكي والحنفي) في صميمها، ويمكن القول إن المذهب المالكي - عقيدة وفقها - تعرض لهزات عنيفة، وامتنحن أعلامه كثيرا من أمراء هذه الدولة التي حكم المغرب الإسلامي، خاصة لما التزمه - لمذهب المالكي - عامة الناس ووجدوا فيه النصرة للكتاب والسنة واتباع الأثر، ونبذ البدع الكلامية العقدية والطرق الخارجية، التي ظهرت بين أظهرهم ورأوا أنها مخالفة للأصلين مخالفة شديدة، حيث استنكرها العلماء والفقهاء الربانيين، مما زاد من غيظ الأمراء المخالفين للمذهب فكادوا له ورموه بقوس واحدة فحاربوه واستبدلوه بغيره من المذاهب وأردوا أن بها يلزموا الناس عامتهم وعلماءهم، ولكن أبي الله للمغرب إلا عقيدة مالك ومذهبه.

«... وكثيرا ما عقدت مجالس المناظرة والمساجلة بين شيوخ المذهب المالكي مذهب البلاد القديم وبين رؤساء وزعماء المذهب الشيعي الجديد، وكانت هناك المساجلات والمجادلات بين فقهاء المذهبين طالما أفحم فيها الشيعة

51 - معجم البلدان، ياقوت الحموي، (12/4). رياض النفوس، 21/2.

52 - الأعلام، للزركلي، (43/2). و الروض المعطار في خبر الأقطار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحميري، ص: 126.

53 - تاريخ الجزائر، للعلامة الجيلالي، 257/1. وسماه ابن فرحون: ابن مسلمة، وقال من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء - أي بني عبيد- ينظر الشجرة الزكية، ص 682.

54 - البيان المغرب، ابن عذاري، 124/1.

بالحجة وقاطع البرهان، وجرت هناك محن ورزايا لمشيخة المالكية وعظمت فيها الحوادث والوقائع استشهد فيها عدد عظيم من العلماء والعباد، ولم ينج أحد من المذاهب الأخرى يومئذ إلا الحنفية لموافقتهم للشريعة في مسألة التفضيل فكان فيهم القضاء والرئاسة...»⁵⁵.

ولقد وقف علماء المالكية في وجه العبيديين وأنكروا عليهم هذه النحلة مما جر عليهم الويلات والقتل، منهم: ابن بردون، وابن هذيل.⁵⁶

فكان للمالكية الفضل الكبير في الوقوف في وجه الفاطميين، ولولاهم لكفرت العامة، وأشهرهم في ذلك سعيد بن الحداد صاحب المناظرات والمساجلات حتى مع أئمتهم،⁵⁷ كما سيأتي في الردود إن شاء الله.

ولما اشتد الخطب، وعظم الأمر، واستفحل التشيع، جمع زيادة الله الأعلي علماء إفريقية إلى القيروان وأخبرهم بأمر الدعي العبيدي فتبرؤوا منه وأعلنوا لعنه قال المراكشي: « ورفع زيادة الله فقهاء إفريقية إلى مدينة تونس مستظها بهم على أبي عبد الله الشيعي فاجتمعوا عند عبد الله بن الصائغ صاحب البريد، وتفاوضا في أمره وقال لهم ابن الصائغ (أن الأمير يقول لكم هذا الصنعاني الخارج علينا مع كتامة يعلن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ويزعم أن أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - ارتدوا ويسمى أصحابه: المؤمنين ومن يخالفه في مذهبه: الكافرين ويبيح دم من خالف رأيه) فأظهر الفقهاء لعنه والبراءة منه، وحرصوا الناس على قتله وأفوتهم بمجاهدته»⁵⁸.

ولهذا نبذ علماء المالكية المذهب العبيدي وحكموا بخروجه عن الكتاب والسنة والعقل، ومما زاد من تمسك عامة أهل إفريقية بالمذهب المالكي؛ بقاء علمائهم بين ظهرانهم وعدم مغادرة المغرب شرقا أو إلى الأندلس، فكانوا لهم عوناً على الثبات مع المحن والفتن التي مروا بها.

ومن فطاحلة العلم والفقهاء في المغرب الأوسط في زمن الفاطميين، الذين بقوا على مذهب مالك ونافحوا عنه: محمد بن نظيف البزاز الأفريقي (ت 355هـ)، ولكن ما لبث أن هجر البلاد لما ظهر في العبيديين وأتباعهم سب السلف، قال ابن فرحون: «كان من العلماء الراسخين والفقهاء البارعين والأئمة المعدودين العباد النساك. كان أبو محمد بن أبي زيد رحمه الله تعالى يقول: لو كان أبو عبد الله بن نظيف بالقيروان لم يسعني أن أجلس هذا المجلس لأنه أولى بذلك مني لفهمه وحفظه وفقهه ودينه وورعه وكان يعد في أعلى طبقة من أصحاب أبي بكر بن

55 - تاريخ الجزائر، للعلامة الجيلالي، 1/303.

56 - ينظر: البيان المغرب، ابن عذاري، 1/125.

57 - تاريخ المغرب العربي، سعد زغلول عبد الحميد، 3/132.

⁵⁸ - البيان المغرب،

اللباد وكان يشبه بن القاسم ولما اشتهرت إمامته خرج من إفريقية إلى المشرق هرباً من الرياسة ولما ظهر فيها من سب السلف.

وذكر أنه دخل إلى موضع تباع فيه الكتب وقد دخل ذلك الموضع جماعة من العلماء والصلحاء فلما دخل قاموا كلهم إجلالاً له وهيبة لأنه كان له هيبة لم تكن لأحد من أهل إفريقية وكان في ذلك المجلس السكاكيني الشاعر فلما رأى تعظيمهم له قال: لقد أعطي هذا الرجل أمراً كبيراً والله لأختبرنه فألقى عليه مسائل فوجده بجرأ لا تكدره الدلاء وكأنه وإنما يجيب من الكتاب فقال السكاكيني: لو قام الناس على رؤوسهم لهذا الرجل لكان قليلاً.⁵⁹

وذكر المالكي جملة من العلماء والزهاد الذين جاهدوا بني عبيد في واقعة " وادي المالح"، لما رأوا كفرهم ومروقهم عن الدين والشريعة، منهم: أبو العرب بن تميم، أبو عبد الملك مروان بن منصور، وأبو إسحاق السبائي، وأبو الفضل الممسي، أبو سليمان ربيع القطان.⁶⁰

في عصر بني عبيد حاولوا نشر عقائد الإسماعيلية الروافض بين أهل المغرب الأوسط وغيرهم، فاستجاب بعضهم ورفض آخرون، وكان فقهاء المالكية على الخصوص في محنة عظيمة مع هؤلاء الروافض من الشيعة إلى سنة 407هـ، حيث اختلف حماد بن بلكين على باديس وفسدت ذات البين بينهما فأعلن حماد برفض عقائد الروافض وإلغاء مذهب الشيعة والتمسك بمذهب أهل السنة، فانقطعت بذلك دعوتهم بالجزائر... وانتهاز المعز بن باديس هذا الموقف فأعلن انفصاله عن الدولة العبيدية، فانتحل يومئذ مذهب أهل السنة وحمل الناس على مذهب الإمام مالك ومنعهم من تعدد المذاهب.. وأمر بإخراج حتى أصحاب أبي حنيفة السنين.⁶¹

فلما وطن أركان دولته حارب الشيعة واستأصل شأفتهم، وقضى على نخلتهم، فكان بذلك أعظم خدمة قدمها للمغرب كله، وللمذهب المالكي أيضاً، فقد شارك في محاربتهم العلماء والزهاد والعباد، فاقتتلوا مقتلة عظيمة فخرّبوا ديارهم ومحو آثارهم وشردوهم وفرقوا جمعهم وصفوفهم، « فكانت هذه الحركة الدينية الفقهية بالمغرب العربي حركة قوية نشطة أكثر ما خدمت فقه مالك واستقلال البلاد».⁶²

وقد ظهر في هذه المدة أشهر علماء الجزائر ممن خدموا السنة النبوية والمذهب المالكي على وجه الخصوص، فشرحوا "الموطأ"، و"المدونة" ودرّسوا كتب المالكية المشهورة "كالتلقين" وغيره، خاصة مع ظهور الدولة الحمادية في بجاية: (405-547هـ)، حيث «كانوا على مذهب مالك يدرّسون "الموطأ" و"المدونة" و"التلقين" لعبد الوهاب

59 - اللدياج المذهب ، ينظر أيضا ترتيب المدارك ، عياض، (1/434).

60 - رياض النفوس، 2/339. وقد وقعت هذه الملحمة في سنة: 333هـ.

61 - تاريخ الجزائر، للعلامة الجيلالي، 1/347. بتصرف يسير.

62 - المصدر نفسه: 1/348. كان ذلك في سنة: 435هـ.

وعقيدتها عقيدة أهل السنة والجماعة...إلا ما شذ منها من سكن جبال بجاية من أهل كتامة، فإنهم على مذهب الشيعة، .. كما أن أهل جبال أوراس وباغاية وإحدى مدن بنطوس كانوا على رأي الخوارج، ويعرفون بالواصلية إباضية المذهب، أما أهل تهودة بالجنوب الشرقي من مدينة بسكرة فهم يومئذ على ذهب إليه أهل العراق من الأحناف»⁶³ وأشهر العلماء الذين فقهوا أهل الجزائر ونشروا علم مالك :

01/ أحمد بن عليّ بن أحمد بن محمد بن عبد الله الربيعي الباغائي⁶⁴ المقرّي، يكنى أبا العباس، رقاّه المؤيد بالله هشام بن الحكم في دولته الثانية إلى خطّة الشورى بقرطبة مكان أبي عمر الإشبيلي الفقيه، وكان من أهل العلم والفهم والذكاء وكان لا نظير له في علوم القرآن والفقه على مذهب مالك، روى بمصر عن أبي الطيب بن غلبون وأبي بكر الأدفوي، وتوفي لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة 401، ومولده ببغاية سنة 345هـ.⁶⁵

02/ أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي: من أئمة المالكية بالمغرب، والمتسمين في العلم، المجيدين للتأليف، أصله من المسيلة، وقيل من بسكرة. كان بطرابلس، وبها أملى كتابه في شرح الموطأ، ثم انتقل الى تلمسان، وكان فقيهاً فاضلاً متفنناً مؤلفاً جيداً، له حفظ من اللسان والحديث والنظر، أخذ عنه أبو عبد الله البوني، وعليه تفقه، وألّف كتاب "النامي في شرح الموطأ"، و"الواعي في الفقه"، و"النصيحة في شرح البخاري"، و"الإيضاح في الرد على القدريّة"، و"كتاب الأصول"، وكتاب "البيان"، وكتاب "الأموال"، وغير ذلك.⁶⁶

قال القاضي عياض: وبلغني أنه كان ينكر على معاصريه من علماء القيروان سكناهم في مملكة بني عبيد، وبقاؤهم بين أظهرهم، وأنه كتب إليهم مرة بذلك. فأجابوه أسكت لا شيخ لك، أي لأن درسه كان وحده، ولم يتفقه في أكثر علمه عند إمام مشهور، وإنما وصل الى ما وصل بإدراكه، ويشيرون أنه لو كان له شيخ يفقهه حقيقة الفقه لعلم أن بقاءهم مع من هناك من عامة المسلمين تثبت لهم على الإسلام، وبقية صالحة للإيمان، وأنهم لو خرج العلماء عن إفريقية لتشرّق من بقي فيها من العامة الألف والآلاف فرجحوا خير الشرين.⁶⁷

63 - المصدر نفسه: 376/1.

64 - باغاية الغين معجمة، وألف، وياء: مدينة كبيرة في أقصى إفريقية بين بجانة وقسنطينة. معجم البلدان، الحموي، (325/1).

65 - الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ابن بشكوال، 87، تاريخ الإيلام، للذهبي، (36/28).

66 - ترتيب المدارك، (102/7). الديباج المذهب، ابن فرحون، (35)، تاريخ الإسلام، للذهبي، (41/9 ط: بشار عواد)، معجم المؤلفين، رضا كحالة، (194/2).

67 - ترتيب المدارك، (102/7).

03 / أبو عمرو الوهراني، 429هـ: عبد الله بن يوسف بن طلحة بن عمرو الوهراني، يكنى: أبا محمد. قدم الأندلس تاجراً سنة تسع وعشرين وأربع مئة، وسكن إشبيلية وقت السيل الكبير في ذلك العام. وكان: من الثقات له رواية واسعة عن شيوخ إفريقية أبي محمد ابن أبي زيد ونظرائه. وكان له علم بالحساب والطب، وكان نافذا فيها.⁶⁸

04 / أبو عبد الملك مروان بن محمد الأسدي البوني، فقيه مالكي من أعيان أصحاب أبي الحسن القاسبي، له كتاب في شرح الموطأ، وأصله من الأندلس انتقل إلى إفريقية فأقام ببونة فنسب إليها، ومات قبل سنة 440هـ،⁶⁹ أخذ الفقه والحديث من تونس وفقه الناس بعناية.⁷⁰

05 / عبد الله بن حمو أصله من المسيلة، يكنى: أبا محمد. كانت له معرفة بالأصول والفروع، واستوطن المرية وقرى عليه بها. وتوفي: سنة ثلاث وسبعين وأربع مئة.⁷¹

وأما في عصر المرابطين: (472-539هـ) فكانت الحياة العلمية والثقافية مزدهرة إذ كانوا أقرب إلى مذهب المالكي؛ فكانت كتب المالكية تدرس في الحواضر العلمية منها: الموطأ، والصحيحين، والرسالة لابن أبي زيد، والتلقين، والتهذيب للبردعي، والاستذكار...⁷².

01 / أبو الحسن علي بن محمد الربيعي المعروف باللخمي: وهو بن بنت اللخمي قيرواني نزل سفاقس تفقه بآب محرز وأبي الفضل بن بنت خلدون وأبي الطيب والتونسي والسيوري. وظهر في أيامه وطارت فتاويه وكان السيوري يسيء الرأي فيه طعناً عليه.

وكان أبو الحسن فقيهاً فاضلاً ديناً متفنناً ذا حظ من الأدب وبقي بعد أصحابه فحاز رئاسة إفريقية جملة وتفقه به جماعة من أهل سفاقس أخذ عنه أبو عبد الله المازري وعبد الحميد الصفاقسي وعبد الجليل بن مفوز. وله تعليق كبير على المدونة سماه: "التبصرة" مفيد حسن. توفي سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.⁷³

02 / أبو محمد عبد السلام: الذي استقر بتلمسان ومات في الدولة المرابطية.⁷⁴

68 - الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ابن بشكوال، 287. الجزائر في مرآة التاريخ، محمد الميلي و عبد الله شريط، ص: 70.

69 - معجم البلدان، الحموي، (1/512).

70 - الجزائر في مرآة التاريخ، محمد الميلي و عبد الله شريط، ص: 70.

71 - الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ابن بشكوال، 287.

72 - الجزائر في مرآة التاريخ، محمد الميلي و عبد الله شريط، ص: 71.

73 - تاريخ الإسلام، للذهبي، 150/32.

ولما جاءت دولة الموحدين، (515هـ-668هـ) نبذوا مذهب مالك ودعوا إلى الاجتهاد والتمسك بظاهر النصوص، فكانوا أول من أدخل المذهب الأشعري إلى المغرب الإسلامي، فتم انتصار الأشاعرة على السلفية، ولم ينصرها إلا أفراد قليلون.⁷⁵

ورغم سيطرة الموحدين على شؤون الحياة العلمية، إلا أنه لم يمنع من وجود علماء مالكية حافظوا على شوخ المذهب في المغرب الأوسط، منهم:

01 أبو عبد الله محمد بن علي ابن الرمامة: 567هـ: ولد في بجاية، وله "التبيين في شرح التلقين"، و"تسهيل المطلب في تحصيل المذهب"، كان ميالا إلى مذهب الشافعي.⁷⁶

02/ أبو محمد عبد الله بن محمد الأشيري 561هـ: الإمام العلامة، أبو محمد، عبد الله بن محمد بن عبد الله بن علي، الصنهاجي الأشيري.

وأشير: بليدة آخر إقليم إفريقية مما يلي الغرب، وهي قلعة لبني حماد ملوك إفريقية. سمع ببغداد مع ولده في أيام ابن هبيرة، وكان من كبار المالكية، فحدث عن: أحمد بن علي بن عزون، وعلي بن عبد الله بن موهب الجذامي، والقاضي عياض، وجماعة.⁷⁷

03/ إبراهيم بن يحيى بن محمد بن موسى، العلامة، أبو إسحاق التنجي، التلمساني، الفقيه المالكي، المعدل. [المتوفى: 663 هـ]: كان فاضلاً صالحاً، ورعاً، بارعاً في العلوم. صنف في شرح الخلاف كتاباً نفيساً في عدة مجلدات، أحسن فيه ما شاء. ودرس، وأعاد، وأفتى، وحدث عن: أبي الحسن علي ابن البناء.⁷⁸

ويمكن القول من خلال ما سبق عرضه إن المذهب المالكي أبي أن يخرج من المغرب رغم النكبات والمحاربات التي تعرض لها مع سائر تلك الدويلات التي عرضنا تاريخها معه، فهو يكتو أحيانا وينشط أحيانا أخرى، حتى تمكن من استعادة المكانة التي يتبوأها في قلوب كل المغاربة إلى وقتنا الحاضر، رغم أن الدولة العثمانية كانت حنفية المذهب، ولكن خمد بجمودها وذهابها من إفريقية.

74 - الجزائر في مرآة التاريخ، ص: 71.

75 - تاريخ الجزائر في القدم والحديث، المبارك المليبي، (2/338).

76 - الجزائر في مرآة التاريخ، ص: 71.

77 - سير أعلام النبلاء، للذهبي، (15/195).

78 - تاريخ الإسلام، للذهبي، (49/144).

ولما جاء ابن الحاجب (ت645هـ)، ولخص المذهب ونقح فصوله عكف الناس على كتبه حفظا وشرحا وتلقينا، فكان لأهل المغرب مرجعا في المذهب المالكي إلى أزمان متأخرة جدا، قال ابن خلدون: ولما جاء كتاب أبي عمرو بن الحاجب لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب وتعدد أقوالهم في كل مسألة فجاء كالبرنامج للمذهب.. ولما جاء كتابه إلى المغرب آخر المائة السابعة عكف عليه الكثير من طلبة المغرب وخصوصا أهل بجاية لما كان كبير مشيختهم أبو علي ناصر الدين الزواوي هو الذي جلبه إلى المغرب فانه كان قرأ على أصحابه بمصر ونسخ مختصره ذلك فجاء به وانتشر بقطر بجاية في تلميذه ومنهم انتقل إلى سائر الأمصار المغربية وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه وقد شرحه جماعة من شيوخهم كابن عبد السلام وابن رشد وابن هارون وكلهم من مشيخة أهل تونس وسابق حلبتهم في الإجابة في ذلك ابن عبد السلام وهم مع ذلك يتعاهدون كتاب التهذيب في دروسهم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم».⁷⁹

ثانيا: من جانب الدفاع والردود على المخالفين.

لم يخل عصر من عصور الإسلام من وجود طائفة من علماء المذهب يفقهون الناس به، ويدرسونه، وينصرونه، وينافحون عنه، ويردون غيره من المذاهب، وقد اشتهر بعضهم في الرد على من يخالفه، وقد سبق جملة منها في ثنايا التراجم، ولا بأس أن أذكر بعضها استقلالا:

01/ كتاب "النبراس في الرد على منكر القياس" لأبي علي الحسن بن محمد المسيلي، (ت580هـ): قال الغبريني: وهو كتاب مليح على ما أخبرت عنه، ولم أره...⁸⁰

02/ كتاب في الرد على ابن حزم: للفقير الصالح الولي أبو زكريا يحيى بن يحيى الزواوي، توفي ببجاية سنة إحدى عشرة وستمائة.⁸¹

03/ " الانتصار للسنة والرد على الطائفة الأندلسية": لأبي القاسم بن سلطان القسنطيني، نزيل تطوان.فاضل، وهو تأليف في " العكارين الطائفة الضالة التي لا زالت لها بقية في بلاد المغرب بقبيلة بني حسن.⁸²

79 - المقدمة، (563/1)

80 - عنوان الدراية، ص:33.

81 - الوفيات، ابن قنفذ القسنطيني، ص: 306، ينظر: الردود على ابن حزم، سمير القديوي، مقال:مجلة الأحمدية ، العدد:13 محرم:

1424، ص: 324

82 - معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، 263.

ومن كان يدافع عن السنة ويجلّ الإمام مالك سعيد بن الحداد (ت302هـ) فقد كانت له مناظرات مع أبي عبد الله الشيعي طالما أفحهم ورد أقوالهم وزيفها وبين الحق والصواب.

وقال عنه المالكي: «وكانت له مقامات في الدين مع الكفرة المارقين أبي عبيد الله الشيعي وأبي العباس أخيه وعبيد الله أبان فيها كفرهم وزندقتهم وتعطيلهم».⁸³

قَالَ ابْنُ حَارِثٍ: لَهُ مَقَامَاتٌ كَرِيمَةٌ، وَمَوَاقِفُ مَحْمُودَةٌ فِي الدَّفْعِ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَالذَّبِّ عَنِ السُّنَّةِ، نَاطَرَ فِيهَا أَبَا الْعَبَّاسِ الْمَعْقُوقِيَّ أَخَا أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيِّ الدَّاعِي إِلَى دَوْلَةِ عُبَيْدِ اللَّهِ، فَتَكَلَّمَ ابْنُ الْحَدَّادِ وَلَمْ يَخَفْ سَطْوَةَ سُلْطَانِهِمْ، حَتَّى قَالَ لَهُ: وَلَدُهُ أَبُو مُحَمَّدٍ: يَا أَبَتَهُ! اتَّقِ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ وَلَا تَبَالِغْ. قَالَ: حَسْبِي مَنْ لَهُ غَضَبْتُ، وَعَنْ دِينِهِ ذَبَبْتُ. وَهُوَ مَعَ شَيْخِ الْمُعْتَزِلَةِ الْفَرَّاءِ مُنَاطَرَاتٌ بِالْقَيْرَوَانِ، رَجَعَ بِهَا عَدَدٌ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ.⁸⁴

وكان لهؤلاء الأعلام الفضل الكبير بعد الله تعالى في نصره السنة والمذهب المالكي في إفريقيا، حتى أصبح لا يرى إلا مذهب مالك والالتزام به، والدعوة إليه والذب عنه والتدليل لمسائله، وتخريجها، وشرحها وبيانها، ولو ذهب أحد لجمع مؤلفاتهم ومناظراتهم وردودهم لكتب أسفاراً كبيرة، وحسي أن أشرت إلى بعض ذلك. والله أعلم.

الخاتمة:

1. إن المقصود بالمرجعية الدينية هم العلماء الذين يبينون للناس عقيدتهم وفقه كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.
2. إن لكل أمة مرجعية دينية يلزم الرجوع إليها لتوحيد كلمة المسلمين وجمع شملهم وتثبيتهم على الحق والدين، وحماية المجتمع من التفرق الديني والاجتماعي.
3. إن للحكام والأمراء الدور البارز والحاسم للتمكين لأي مذهب أو عقيدة لذلك وجب على من استرعاه الله أمر المسلمين أن يسوسهم بالكتاب والسنة وفهم علماء الأمة الريانيين.
4. لقد كان لعلماء الجزائر دور بارز وهام في بلورة الفقه المالكي والدفاع عنه وتأسيس المرجعية الفقهية والعقدية لهذا البلد، للحفاظ على الهوية الإسلامية.
5. لقد مرّ الفقه المالكي في المغرب الأوسط بمحن عديدة حورب فيه واستبعد ولكن بفضل ثلة من العلماء الريانيين صمد في وجه كل المذاهب والعقائد المخالفة لهدي القرآن والسنة؛ حتى مكّن له من جديد.
6. تميز مذهب الإمام مالك بعدة سمات جعلته يتبوأ مكانة عالية في قلوب الناس.

83 - رياض النفوس، (75/2).

84 - سير أعلام النبلاء، (127/11). وقد طول ترجمته وبين بعض مناظراته.

7. يعتبر القضاء من أهم الركائز التي تساهم في التأصيل لمذهب معين، والتجسيد في أرض الواقع علميا وعمليا.
8. لقد ثبت أن للجزائر علماءها وفقهاءها الذين كانوا يضاهاون فقهاء وعلماء القيروان وفاس وغيرها من الحواضر في إفريقية والأندلس وحتى في المشرق الإسلامي.
- هذا فما كان من توفيق فمن الله وحده، وأسأله أن يعصم من الخطأ والزلل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة عشرة، 2002.
2. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري الدرعي الجعفري السلاوي، ت: جعفر الناصري/ محمد الناصري، دار الكتاب - الدار البيضاء -.
3. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت - لبنان.
4. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، ت: عمر عبد السلام التدمري: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، 1413 هـ - 1993 م.
5. تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي، دار الأمة، الجزائر: 2008.
6. تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، ت: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
7. ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي عياض بن موسى اليحصبي، ت: سعيد أعراب وآخرون، مطبعة فضالة الحمادية، المغرب، الطبعة: الأولى. 1983م.
8. تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المبارك الملي الجازيري، مكتبة النهضة، الجزائر. د. ت.
9. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، ت: دار الجيل بيروت.
10. تاريخ مصر، عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصديقي، أبو سعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ.
11. تاريخ المغرب العربي، سعد زغلول عبد الحميد، دار المعارف، الاسكندرية، مصر.
12. تهذيب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، 1326 هـ .
13. التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، ت: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة - لبنان.

14. الثقات، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد: دار الفكر، الطبعة الأولى 1395 - 1975.
15. الجزائر في مرآة التاريخ، محمد المليبي و عبد الله شريط، دار البعث، قسنطينة/ ط1 /1965.
16. الحياة العلمية في إفريقية، يوسف بن أحمد حوالة، معهد البحوث العلمية، جامعة أم القرى، السعودية، 2000م.
17. دولة الأدارسة بالمغرب، سعدون نصر الدين، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م.
18. الدولة الرستمية في المغرب الإسلامي، محمد عيسى الحريري، دار القلم، مصر. ط: الثالثة 1987م.
19. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمرى، دار الكتب العلمية - بيروت.
20. الردود على ابن حزم، سمير القدوي، مقال:مجلة الأحمديّة ، العدد:13 محرم: 1424،
21. الروض المعطار في خبر الأقطار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري، ت: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - طبع على مطابع دار السراج، الطبعة: الثانية، 1980 م
22. رياض النفوس، عبد الله بن محمد للمالكي، ت: بشير لبكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1994.
23. سير أعلام النبلاء: الامام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الارنؤوط ، مؤسسة الرسالة.
24. سير السلف الصالحين، إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، تحقيق: د. كرم بن حلمي بن فرحات بن أحمد، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.
25. طبقات علماء إفريقية، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم المغربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان.
26. عمر بن عبد العزيز معالم التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوة، علي محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، الطبعة: الأولى، 1427 هـ - 2006 م.
27. عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بجاية، لأحمد بن محمد الغبريني، ت: عادل نويهض، بيروت، 1969م.
28. فتح العرب للمغرب، حسين مؤنس؛ مكتبة الثقافة الدينية، د.ط، ود.ت.
29. الكامل في ضعفاء الرجال، أبو أحمد بن عدي الجرجاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود-علي محمد معوض، شارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة، الناشر: الكتب العلمية - بيروت-لبنان.
30. معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، الطبعة الثانية، 1980.
31. الحنن، محمد بن أحمد بن تميم التميمي المغربي الإفريقي، أبو العرب، ت: د عمر سليمان العقيلي، دار العلوم - الرياض ، السعودية، الطبعة: الأولى، 1404هـ - 1984م.
32. معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1995 م.
33. معجم المؤلفين، عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة ت: مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت - المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، خليل شحادة: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1408 هـ - 1988 م

34. المغرب في حلى المغرب، أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي، ت: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة. - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج، دار صادر بيروت، الطبعة: الأولى، 1358هـ.

35. الوفيات، أبو العباس أحمد بن حسن بن الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني، ت: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة: الرابعة، 1403 هـ - 1983 م